نثار الروح والجسد

طفـو لــة

الطفلتان تسيران معاً، وتبدوان كوردتين يانعتين، ينشرح البال لهما، وتنفرج الأسارير، لولا ذلك الحمل الذي يثقل كاهل يفاعتهما، ويتمثل في الحقيبة المدرسية، التى تبدو ككيس من الرمل ، يدفع بالظهر إلى الأنحناء ، وبالأوصال إلى الأرتخاء...
تغلق الأولى يدها على مصروفها اليومي ، وتنتظر الاستراحة اليومية، عند منتصف اليوم الدراسي بفارغ الصبر ، أما الثانية فتفتح أحلامها الطرّية على مصراعيها ، وتردد كل يوم كلمات سيد العالم، التى انطوت على الوعد، بأن تغدو حياتها عادية، وأن تعود يوماً من مشوارها اليومي ، من المدرسة إلى البيت ، وتجد أباً يمنحها القبلة الصباحية، ومصروفاً يومياً، تغلق عليه راحة يدها، وتريح خيالها من عناء الانتظار .

إشـــــــــــــــــــــارة

تصعد السيّدة بخيلائها الواضح، إلى سيارتها الفاخرة ، فيما تقفز قطتُّها السيامية الناعمة، إلى المقعد الأمامي ، وتقعي على ركبتيها الخلفيتين.

تدير السيدة بهدوء محرّك السيارة، وتترك لي فرصة مشاهدة ما أنحسر من تحت ثوبها الضيِّق، لحظة تدفع المركبة إلى التحرك، ومغادرة المكان على عجل.

عند الأشارة الضوئية ، تضطّر السيدة إلى التوقف ، فيسرع الولد، حامل المنديل المتسّخ ، ليمسح زجاج المركبة الأمامي ، تشير إليه بيدها أن يبتعد، لا يذعن الولد لذلك، ويبدأ بمسح الزجاج ، محركاً يداً تقبض على المنديل، بينما تمتد يدها هي إلى القطة تمسح ظهرها.

لحظة ، وكانت الشارة قد أضاءت لونها الأصفر ، فضغطت السيدة على الزر الكهربائي ، إلى يسارها ، ليرتفع زجاج النافذة ، ثم تندفع بمركبتها مجدداً، مبتعدة عن الولد حامل المنديل ، دون أن تعيره أيه انتباهه.

قـليـلُ من الـذوق...فقـط؟

في الساعة الرابعة صباحاً، وبعد أن آويت إلى فراشي بوقتٍ ليس طويلاً، لحق بي رنين الهاتف، ليشّد بخناق راحتى ، وليدفع بالصداع الرهيب إلى رأسي ، حتى يلازمنى طوال اليوم التالي.

ظننته حلماً ، ثم بعد الوهلة الأولى كابوساً، ثم سقط قلبي بين قدمي، حين أمسكت بوعي الصحو، وتبادر إلى ذهني للحظة، بأن حدثاً جللاً قد وقع لواحدٍ من أعزائي.

ما أن جاءني الصوت على الطرف الآخر من الخط السلكي، حتى كنت أتهاوى في مقعدي غير الوثير ، فهو كان يخبرني بوفاة أخي المقيم في الخارج، والذي لم أره منذ سنوات.

ولأن لي أكثر من أخٍ ، يقيم في الخارج، ولم أره منذ سنوات، تمالكت نفسي بعد أن قبلت بقضاء الله وقدره، وسألته عن أي أخوتي ، ذاك الذي اختاره الله إلى جواره.

دون تردد بالطبع قال:-

- أنه أبــو أحمــد

لكن هذا الـ"أبو أحمد"....ليس لي أخاً بهذا الإسم؟!

بعد ذلك فقط، أدركنا ، كلانا ، بأن "نمرة" الهاتف، التى طلبها محدّثى ، كانت خطأ ، وعندها ، فقط ، أغلق الخط ، على التو ، من جهته ، دون ، حتى، أن يقدم كلمة عزاءٍ، أو اعتذار واحده.

مُعـــــــــــــــــارض

على المنصّة التى تواجه "الحفل" الكريم، كان يبدو بكامل عنفوانه وحيويته وثقته بنفسه، يمنطق القول، و يمنح معنى للكلام، ويهبه جاذبية قصوى، حين يمتد به الخيال إلى مداعبة الأحلام الكامنة ، وحين تنفتح الذاكرة إلى ما أنطوت عليه من سالف الأمجاد!

بكامل أناقته ووضوحه وصراحته ، تبدو المنصة جزءاً منه، ويبدو الجمهور مكملاً له، يعبّر عنه وله، بكل الحقائق الواضحة والآمال العريضة، في اللحظة الهاوية، التى كبت فيها أحلام الناس، وصغرت آمالهم، التى كانت عريضة .

المجرد والمطلق وحدهما، مفردات دائمة في قاموس الرجل ، الذي لا تعرف الخسة طريقاً إلى قلبه أو عقله أو سلوكه، وبعد التجربة الطويلة ، هو يدرك تماماً مكانته وموقعه في قلوبهم وعقولهم . لذا فهو يظهر في مثل هذه المناسبة، على أفضل وأجمل ما يكون، يجد نفسه تماماً وتشعر وأنت في حضرته، كأنك أمام لحظة أبدية لن تنتهي بقفلة طبيعية أبداً...

وحين وصل الألق ذروته بالرجل، الذي صار لزاماً عليه أن يسمي المسميات بأسمائها، ويضع النقاط على حروفها، تقدم من الصفوف الخلفية واقفٌ على قدميه، ظل يراقب التفاعل الدائم في القاعة ، دون أن يشارك.

ودون أن "يموت" همّاً، سار بهدوء بأتجاه المنصة، وحين وصل إلى سيّد القاعة ، دسّ في يده ورقة مطوّية، فضّ طويّتها ، بعد أن توقف عن مواصلة ألقه لحظه.ثم أنهى حديثه -على غير عادته- على عجل، واعتذر بأن أدركه الوقت، وموعد هام، لابد من التقيد والالتزام به.

ثـلاثـون عـامـاً فـقـط

بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الرغبة المتصلّة، والتمّني المستمر ، التقاها هي السيّدة الناضجة التى لا مثيل لها في جمالها وحضورها، وجاذبيتها، وهو السيّد المحترم المتزوّج، الذي لديه "دستة" من الأنجال والذي لم يكفّ يوماً عن البحث والرغبة في أن يقع في غرام المرأة، التى شكلتها خيالاته وأحلامه المتصابية أبداً...

التقاها وتواصل معها في العلاقة التى لا تشوبها شائبة، "يفضفض" لها كل همومه ويتحاور معها في كل الشؤون العامة والخاصة، فيجد توافقاً وانسجاماً ، تتوطّد دلالاته يوماً بعد يوم...

لايشعر تجاهها برغبة تداهمه في مواجهة النساء الأخريات، لكنه يشتاق إليها كل يوم، بل كل لحظة ، ويعتقد بأن الدافع هو أن كلاً منهما في علاقته بالآخر، إنما يحقق زهواً له ، هو بتصريحه الدائم لها بقيمتها كإمرأة متميزة، وهي بإعجابها الذي لاتخفيه به كرجل ناجح...

اعتراف أخير، كان ينقصهما معاً، وهو أن يعترف أحدهما، أو كلاهما معاً، بأن الحظ خانهما سوياً، فقط لأنهما لم يلتقيا من قبل... وحين ألمحت له بذلك، قال لها: بأنها كانت له قبل أن تولد، وقالت له:بأنها كانت ستنذر نفسها له طول العمر...فقط لو أنهما التقيا من قبلُ....من قبلِ ثلاثين عاماً فقط .

تـــاج

أصرّت ابنتي التى لم تتجاوز بعد ، الخامسة من عمرها ، اصراراً عجيباً على ابتياع التاج الفضي ، المعروض في محل "الأكسسوارات" ، حين ذهبنا إليه ثلاثتنا –هي وأنا وأمها– ، لشراء هدّية لها بالذات ، بمناسبة عيد ميلادها، راغبين في إحداث المفاجأة المعتادة ، لكنها أصرّت بأن يكون "التاج"، فوق البيعة ، شأناً خارجاً عن حدود المناسبة، وعن الهدية الواجبة ، ارتباطاً بها.

لم ندرك كلانا -أنا وأمها- سرّ ذلك الأصرار ، لحظتها، لكننا عثرنا عليه لاحقاً .. حين عدنا إلى البيت ، انصرفت عنا ، بدعوة صديقتيها اللتين هما في مثل عمرها، وقامت بارتداء أفخم أثوابها، ثم وضعت الأكليل ، وجلست بين وصيفتيها ، أقصد صديقتيها ، معيدة بذلك المشهد الذي رأته الليلة الفائتة، والذي تضمن حفل تتويج ملكة جمال العالم.

أيام كاملة , والصغيرة ابنة الخامسة، ترى في نفسها ملكة متوجة لجمال العالم، تتعامل معنا بالزهو والكبرياء، وتحرص على أناقتها وجمالها ، الذي صار ضرورياً للحفاظ على المكانة، أو على التاج، إلى أن رأت يوماً ، ودون قصد منّا ، شريطاً أخبارياً عن ملكٍ ما ، دميم الخلقة ، محمولاً على محفةٍ، فوق اكتاف رجالٍ حفاة، ركعت الجموع أمامه ذلاً ووضاعه..حينها، هرولت الصغيرة إلى تاجها والقت به من شرفتها ، من على الدور الثامن، وعادت إلى سريرها، تندّس في فراشها ، وكأنها تهرب من ذاتها .

حدث في يوم السبت

رغم تغيّر الوضع العام ، المحيط بالناس ، لم تتتغّير عادة أهل السوق ، في أن يكون يوم السبت يوماً خاصاً، تزدحم فيه الأرصفة ، فضلاً عن المحلاّت ، ليس بالمارّة ، ولكن بالبضائع أيضاً...

البضائع من كل صنفٍ ونوعٍ ومستوى ، تختلف في كل شئ، الاّ في كونها مستعملة من قبل ، وفي كونها أيضاً قد أستخدمت هناك بالذات، في الجانب الآخر من الخط الأخضر...

تملؤك الدهشة، فأنت بعد ثلاثين عاماً، على تلك الوقائع، لم تكن تعلم بأن الأمر سيتجاوز حدود الإغاثة ليتحول إلى ما يمكن اعتباره عرفاً أو عادة، وربما إلى نمطٍ من الوعي أيضاً..كانت أمك حين تدخل البيت، وهي تضع على رأسها تلك الكومة من الملابس الغامضة، كنت تشم رائحتها، فتعتقد بأن أصحابها القاطنين وراء البحار ، على قدرٍ من الثراء والجمال، طول القامة ، والامتلاء ، الرفاهية..ثم الأهم من كل ذلك، أنهم ذوو رائحةٍ خاصةً أيضاً...

اليوم أنت تذهب عن سابق اقتناع وترّصد ، لتضع جسدك في الثياب التى سبق وأن عايشت أجسادهم، وتشبعت أيضاً برائحتهم، وتقبل بأن تقتات على قمامتهم...

تتجاهل , في بلادةٍ , ذلك الاكتشاف ، وتواصل بحثك عن حذاء، مشترطاً فقط، أن يكون على "مستوى"، إلى أن تجابهك إمرأة .. تشبه إلى حدٍ بعيدٍ أمك، تضع في حجرها أثواباً فلاّحية، حاكتها أيديً متعبة (ولاشك) في ليالٍ ماطرة (ربما) ، غرزة أثر غرزة، وحبكةً وراء حبكة، تنادي بصوتٍ شديد الوقع.

- الثوب بخمسة شواقل.

تنتابك حالةُ خاصة ، واستثنائية من التأثر، فتضع في يدها عشرة شواقل، وتترك لها الثوبين، آملاً في أن تعود إلى بيتها ، بهما...

تواصل سيرك ، مبتعداً ، وكأنك تهرب منها..منهما...، تلّف السوق كلّه، ولا تنجح في شراء شئ، وحين تعود ، تجد المرأة اياها، تلك التى تشبه إلى حدٍ بعيد أمك، بتجاعيدها وشيخوختها، وضعفها المثير للحنق...تجدها في مكانها ، مازالت تنادي

- الثوب بخمسة شواقل...

تضع في يدها عشرة شواقل أخرى، وتأخذ الثوبين ، وتخرج من السوق هارباً ، ومتسائلاً في سرّك، إن كانت زوجتك ستوافق على مجرد فكرة اقتناء الثوبين في خزانتها ، فضلاً عن ارتدائهما!.

موعظـــة حسنـــة

أن أضع في يدي "سبحة" ، صارت عادة تلازمنى ، وانتقلت لي من ذلك الوسط، الذي ابتلاه الله بالوعي اليساري ، أو التقدمي ، كما في بعض الروايات أو المقولات، عند البعض تنمّ عن حالٍ من القلق، وعند البعضٍ الآخر تكشف عن رغبة في الوجاهة، أو بإعتبارها شيئاً من قبيل "الاكسسوار" ، أو ماشابه ذلك.

الجميع يدرك بأن الظاهرة ، ليست على علاقة ما ، أيه علاقة لا بالتسبيح ، ولا بتوارث العادة ، أو الأخلاص للتراث ، أو أي شئ من هذا القبيل..

المهم في الأمر هو ، أنني وبينما كنت يوماً سائراً في شارعٍ ما ، أمسك بيد ابنتي الصغيرة ، استوقفني شيخ وقور ، ونبهني بأدب ، لعدم جواز التسبيح باليد اليسرى، قبلت الملاحظة بكل الروح الرياضية، وشكرت الشيخ ، ولم أسع لسوق الأعذار، من قبيل أنني "يساري"، أكتب بيدي "الشمال" وآكل بها، وأفكر بطريقة أخرى، تختلف عمّا يدور في أذهان العامة، أو عمّا يفكرون به ..إلى آخر ما هنالك من إنشاء ممكن..

تجاوزني الشيخ حتى صار أمامي ، يسير وأواصل السير وراءه، كانت بيده "سبحة" بالطبع، لم تكن –على الأغلب- من عوامل "الديكور " ومؤكد أنها لم تنتقل إليه بفعل العدوى من النخبة اليسارية..لكنها كانت -باللغرابة- تتأرجح بين أصابع يده اليسرى، مثلي تماماً ، فكرت للحظة في أن ألحق به ، لأسدد له النصيحة ، أو الموعظة الحسنة ، حسب رواية البعض ، لكن الصغيرة في يدي ، والزحام الذي لف أجواءنا أخذه بعيداً.

ومن يومها ، لم تفارقني العادة ، باستثناء التغير الطفيف : أن أكون حريصاً دائماً على أن أسبِّح بيدي اليمنى ، مهما كانت الأسباب والظروف والعوامل ، أو حتى المغريات ، التى يمكن أن تحول دون ذلك .

كـــان صديـقـــي

- قهوة سادة من فضلك

يتأمل العم أبو صالح البخار المتصاعد ، قبل أن يلقّم الإناء بملعقة القهوة، وتدور به الأيام ، التي تتالت دون أن يقوَ على فهم ما رافقها من تطورات، كان يمكن أن تبقى طيّ القدر، لولا أن طال به العمر صدفة ، وأخطأته أكثر من قذيفه ، وطاشت عنه غير مرّة رصاصات القنص ، حين كانت الدنيا ، ليست أكثر من ساحة قتال ، وليست سوى مغامرة ، لا أحد يدري ما ستؤول اليه بعد يوم ، ولا حتى بعد ساعة.

القدر وحده...كان سيداً ، يتحكم بكل شئ ، ليس بأعمارنا فقط ، وإنما أيضاً بصداقتنا ورفقتنا ...كانت الأيام لحظات متصلّة من الوقت عديم المعنى ، لكن الأمر لم يخلُ دائماً من نزوهٍ عابره ، أو متعةٍ ما كان أحد يضمن أن لا تنتهي بفاجعة...

رغم ذلك كنا ... نتقاسم السيجارة واللقمة والحياة ... ، فالخندق الذي كان يجمعنا وقت الإشتباك كان يحتمل خياراً واحداً فقط من اثنين لا ثالث لهما : أن يكون قبراً ...أو ملاذاً للسلامة...

كنا جميعاً أخوة ... وكنا جميعاً أصدقاء ، أما هذا - يا للقدر- فكان أكثرهم رفقه لي

- أبا صالح هيا بنا!

ثم نسهر الليل بطوله

أبا صالح هل تبقى لديك شئ من نقود؟

ويفتش جيوبك واحداً واحداً

أخي حمداً لله على سلامتك ...على سلامتنا.

وبالمناسبة تحتفلان معاً ، حتى مطلع الفجر...يتوسط فنجان القهوة الصينية الفضيّة ، فيما الأصابع ترتعش بفعل إرهاصةٍ داخلية تفجّرت فجأة ، حين فرّت من العين اليسرى ، التي طالما أغلقها صاحبها لحظة التصويب ، دمعةُ أسى...

- آهٍ أيها السيد ، ماذا فعل القدر بنا؟

تقدم الساعي من السيّد المدير العام خطوة إثر أخرى ، كان يتحدث بالهاتف والسيجار الفاخر في فمه، فيما كان رفيق الأيام التي مضت ، يؤدي مهمته بصمت ، ويحرص على أن لا ترتعش يدُه وهو يضع فنجان القهوة برفق على الطاوله ، ثم يمضي بخاطره:

- تقاسمناه حلماً ...ثم واقعاً ،ولكن على أساس القليل ...القليل من المساواة....

مبـــــــــــــــــــدع

بكل الثقة التى لدى المبدع ، جمع القاص أشتات نصوصه في مخطوط، وبعد أن أجمع قرّاؤه من أصدقائه ذوي الشأن والدراية ، تقدّم به إلى اللجنّة المشرفة على الجائزة الوطنية المعلنة.

لم ينتابه الشك لحظة ، في أنه سيفوز بواحدة من الجوائز الثلاث المجزية ، ولأنه يعاني من بطالة مهنية ، وما يترتب عليها من أوضاع معيشية صعبة، فقد أقدم على الترتيب لمشروع صغير ، يمكن له أن يوفر للعائلة الصغيرة ، التى ابتلاها الله بالمعيل ، قليل الحيلة ، شحيح ذات اليد ، طويل اللسان ، لقمة العيش والمعيشة.

ترتّب على الأمر كثير من الديون التى حسبها صاحبنا بدقة ، حريصاً كل الحرص على أن لا تتجاوز قيمة الجائزة المنتظرة ، والمتوقع حصوله عليها رسمياً بعد ثلاثة أشهر ، حسبها باليوم والساعة، ووعد دائنيه على هذا الأساس ، حتى يكون صادقاً أميناً ، قادراً على الوفاء بإلتزاماته.

مضت الأيام ببطء شديد ، وتأخر موعد الإعلان عن الجائزة ، وكان صديقنا يقوم بالتفتيش اليومي الدقيق للصحف اليومية ، باحثاً عن الإعلان، الذي سيتضمن اسمه لا محاله.

بعد مضي وقت أطول من اللازم ، لم ير القاص الجميل في أعيننا -نحن فقط- إعلانه المبتغى، ولم يتصل به أحد، ليزّف له البشرى المتوقعّة، لكنه أيقن بأن خللاً - بريدياً ربما- أو فنياً محضاً، هو الذي حال بينه وبين القدرة على ردّ الديون والمستحقات التى تراكمت عليه.

إعلان واحد فقط ، طالعنا جميعاً، بعد وقت ، تضمن إسم صاحبنا ، وكان فاجعاً ، للأسف الشديد ، لأنه إعلان نعي، إنطوى على خبر وفاته على الطريقة الوحيدة، التى يمكنه أن يقررها -الإنتحار .

مـــن قـبـــــــــــــــــــــلُ ، مـــن بـعـــدُ

قبل أعوامٍ قليلة ، كنت تشبه حلماً هام على وجوهنا ، أو غيمةً جابت سماء أحلامنا ، أفتقدتك أزقّة المخيم وحجارته، وكل بقعةٍ فيه، فضلاً عن أهله، الذين طالما استحضروك في أحلامهم وخيالاتهم ، وأطلقوا أسمك على القادم من أطفالهم.

كنتَ مزّيناً بغار البطولة ، ومطوقاً بمشاعر الناس الطيبيين ، تتقافز من على أسطحة المنازل ، حين تكون هنالك مطارده ، كما الغزال، وتنتقل بين الأكف المشرّعة، والدعوات الحاشده بالسلامه ، حتى استقر بك المقامُ في الأفئده...

بعد أعوامٍ ، أنت تتذكر السوط يلهب ظهرك ، والقيد يدمي معصميك ، وكل عذاب الدنيا يحطُّ على كاهلك ...تعتصر ذاتك كليمونة من الألم، وتجيب:

- من أجل الوطن يا أبي
- من اجل الوطن يا أبي

ولا يهدأ السؤال ، رغم أن جوابه يعمّ المكان بأصدائه ذات الرنين الذي لا يتوقف إلى أن يداهمك الغياب عن الوعي..

أنت اليوم تواجه ذلك المنكمش على ذاته ، في الركن المظلم من القبو، بكلّ التحفّز والجبروت ، جاهزا للثأر من ضعفك الذاتي الذي طالما انطويت عليه ، وسميتّه صموداً من أجل الوطن .

أنت -طول عمرك- مرهون للوطن، قاتلت من أجل الوطن ، طوردت ...اعتقلت ...ثم صمدت وتمنّيت الموت أكثر من مرّة ...وها أنت تقاتل أيضاً ، بكل العنف الذي يفاجئك ، و القوة التي حطّت عليك، من فوق اكتافك ، من أجل الوطن أيضاً. ■

مســـــــــــــــؤ و ل

كان أول فعلٍ قام به ، إستبدال تلك القطعة الخشبية التى تتوسط مكتب المدير ، وتحمل إسمه محفوراً على الخشب ، ذكرّته تلك القطعة بجوائز التقدير وجوائز المهرجانات ، التى طالما كان يرقبها عن بعد ، ويمنّي النفس بواحدة منها ، لكن دون جدوى.

أختال الرجل كثيراً ، في اللحظة التى كان يجلس فيها على الكرسي، ويدور حول نفسه ، ويتأرجح يميناً ويساراً ، ولا يكّف عن دعوته الزملاء للجلوس في حضرته ، وزادت في زهوه كثيراً ، معرفته العارضة ، أن ذلك الكرسي بالذات كان يجلس عليه مسؤول كبير ، قبل أن تتطور الأحوال سريعاً، ويقوم باستبداله بآخر أكثر أناقة وأعلى كعباً وأعرض زخرفاً...

لم يفكر الرجل لحظة في أن الأمر مؤقت وأنه لن يتجاوز بضعة أيام هي مدة الإجازة الطارئة التى أضطر مديره إليها، للقيام بمهمة غاية في الأهمية ، وبالغة في الخطورة ، بعد أن ملّ الفراغ و الرتابة القاتلة ، التى تحيط بكل ما يمتّ للدائرة بصلة...

على محدودية أمتدادها الزمني ، كانت الأيام القليلة مناسبة عظيمة ، لأن يحقق صاحبنا كل ما تراكم في نفسه من اعتقاد وقناعة بقدرته الفائقة على القيادة ، ولأن يثبت لكل من يقف في طريق تقدمه على طريق المراتب الوظيفية ، أنه كان طالباً نجيباً في مدرسة المسؤولين ، وأنه ما زال يحفظ عن ظهر قلب سلوكهم وعاداتهم ، كيف يشيرون بأصابعهم ، وكيف يغلظون من أصواتهم، وكيف يتصنعون الجدّية ، وكيف ينفخون أوداجهم حين يتحدثون ، وكيف يقومون بالإفتاء في كل شأن يدور حوله نقاش بين نفرٍ من الناس...

شخص واحد فقط ، صار يرى في الأيام القليلة دهراً ، يعدُّ ساعاته ودقائقه بوجل وترقب ، وهو إن كان في حقيقته لا يرى في زيدٍ خيراً من عمرو، إلاّ أنها لم تعد تحتمل "أبوية" ذلك الرجل ، الذي كان يتودّد لها أستناداً إلى اعتقادٍ صريح ، بأنه خير نموذج للمسؤول الذي يمكن أن يكون على شاكلته ، هو سيد الدنيا ، المغامر بعاطفة الموظفة المتدرّبه، المتطلّعة إلى المجد والشهرة، فقط بمجرد أن يرتبط أسمها بإسمه العظيم ، حتى لو كان في أطار الشائعة أو الفضيحة.

لـبـــــــــــــــــــــــاقـــــة

كان قد أغلق على ذاته نوافذ المركبة ، وسار بها بسرعة على إيقاع الأغنية الشبابية ، ترافقه صديقته الدائمة ، التى ماتلبث بإحتراقها أن تحيل المكان الضيّق خاصته ، إلى ما يشبه ذلك الكيس ، الذي يحشر فيه المحققون رأس المعتقل ، مهددين بخنقه وهادفين إلى إنتزاع إعترافاته بكل ما فعل وقال ، وحتى ربما بما لم يقل ولم يفعل...

بلحيته الكثّة المتربة بفعل الإهمال المتعمّد على الأغلب ، إقترب الشاب من الطريق ، متشبثاً بحقيبته التى يضعها على كتفه، وبها كل مستلزمات برنامج حياته العبثي، الخاصة بالشغل أو تلك التى تشكل احتياطاً لمواجهة طارىء المبيت خارج بيت العائلة المثير للحنق والتوتر أو الإكتئاب.

حركته الميكانيكية إعتادها منذ وقت ، حين تعرّفت حواسه جميعها على الطرق السريعة ، وإعتاد بها أن يتنقل عبر محطاتها، حيث ما عاد بالضرورة ينتقل من مدينة لأخرى ، بإتجاهٍ مستقيم أو مستمر ، دونما تقطّع أو تعرّج ، حتى أنه تعرف إلى معنى الطرق الإلتفافية ، بإعتبارها أطول الطرق ، وأحياناً تكون أقصرها ، قبل أن تأخذ شكلها ومعناها وحضورها على خرائط العراك السياسي بين المتخاصمين اللدودين ، اللذين يحاولان أن يكونا جارين حسنين دون جدوى!

حين توقف من ما كان لوقت مضى ، يغلق على ذاته ، سعياً وراء حفنة النقود ، ورفقة الطريق المتقطعّه ، تزامنت حركة يده التى أوقفت الأغنية الشبابية ، مع حركة قدمه على الكوابح ، وأبدلتها بشريط يتلو فيه الشيخ آياً من الذكر الحكيم...

وعلى إمتداد الطريق التى صارت تبدو كل لحظة أطول وأكثر وحشة ، يتتابع تلميح الرجل الذي كان منغلقاً على ذاته ، بحاجته إلى أن يستل واحدة من صديقاته الدائمات ، رغم جلال الشهر ، الذي أنزل فيه ما يتلى على مسمعيهما في "مسجلة" المركبة...

أطال ذو اللحية الكثّة المتربة لا مبالاة متعمدة ، حتى وصلت اللباقة والكياسة حدّاً زائداً ، حينها فقط ، أخرج علبة سجائره من جيبه ، ووضع واحدة بين شفتيه وسأل ناقله عمّا يشعله بها من النار.

نظر الرجل إلى من يجلس بجواره ، نظرة غيظ ، وإستل على عجل من علبته ما يمكن أن يساعده على أن ينفث كل ما بصدره من حنق ، أشعلها وشهق أكبر كمية ممكنة من الدخان ، قبل أن يقدم لجاره ما يمكن أن يشعل به سيجارته ، من غير رغبة حقيقية.

يـــوم الـفـــــــــــــــــرح والـمـأتـــم

لطالما أبدى حرصه على عكس كل التوقعات والتنبؤات ، التى رأت فيه شخصاً سيء الطالع منذ أن ولد في الخامس من حزيران ، حين هبّت أسراب الجراد على معاقل الحقول اليانعة ، التى كان يحضّرها الفلاحون ليوم الحصاد. وإلى أن صارت لازمة حولية ، أن يحدث مكروه لأحد من المقربين إليه ، أو ممن يعيشون معه أو حوله ، في كل خامس من حزيرانات الرجل ، الذي صار منحوساً في نظر أهله وأقربائه وجيرانه ، وكل من في البلد ، ممن يعرفه أو يرتبط معه بعلاقة ما...

رغم ذلك فقد كان الرجل مقبولاً على الجميع ، نظراً لإخلاصه في عمله ، ولضعفه ولكثرة عياله ، يجامل الناس ، يحضر أعراسهم وأتراحهم ويقوم بالواجب وفق العادة في كل مناسبة .

ونظراً لطبيعة عمله كاتباً في دائرة الأحوال المدنية ، فهو يدّقق بشكل جيد في ملفات المواليد والوفيات ، ويحفظ كثيراً من التواريخ كما يحفظ إسمه تماماً. ويشعر بأهميته المتزايدة ، كلما "راجعه" أقرباؤه أو أهل بلدته وحارته كثيرو المواليد والوفيات أيضاً، في معاملة يريدونها على عجل ، أو كلما داهمهم السهو ، وغفلوا عن تسجيل مولودة أو حالة وفاة ، واضطروا إلى تمضية حال معاملة لازمة ، بعد وقت على حدوث الأمر...

حينها ليس لهم سواه ، لم يشعر يوماً بحاجته إلى أن يتوارى عن الأنظار سوى في ذلك اليوم من ذلك العام ، الذي أكّد له هو شخصياً، الذي طالما دافع عن نفسه ، ورفض تلك الصفة التى الصقها به الناس ، بأن لادخان من غير نار ، وأن هنالك أصلاً معقولاً ومنطقياً لما يشيعه عنه الناس ، حين شهد بأم عينه نتائج النكسة الناجمة عن الهزيمة في يوم الحرب التى أندلعت في ذكرى يوم ميلاده...

لو لم يولد في ذلك اليوم الحزيراني ، لكان شأنه شأن كل أبناء جيله ، لايحفظ يوم ميلاده ، ولايحتفل به أصلاً ، بل لايذكره كما عهد الناس ممن حوله.

مناسبة واحدة عدّها ستجبّ كل ما سبقها ، وهي ذلك اليوم الذي شهد عامه الستين ، حين عدّ بين يدّيه وبأصابعه المرتجفة ، مالاً لم يره منذ ولد ، بل إن ذهنه لم يصل يوماً لذلك الرقم في أي تعداد سابق.

حين أحيل إلى المعاش ، وقبض مكافأة آخر المدّة ، أحتار صاحبنا ، الذي ترك صفاً من الأنجال ، الذين صاروا أصحاب بيوت وربات لها ، وإمرأة رافقته أكثر من أربعين عاماً ، في رحلة الحياة الصعبة ، إحتار فيما عساه يفعل بكل تلك النقود ، ولم ترق له كل فكرة طرحها عليه واحدٌ من أولاده أو واحدة من بناته ، وشم فيها رائحة مصلحة خاصة به أو بها...

رغبةٌ واحدة لازمته طوال عمره ، ولم يكن بمقدوره أن يحققها ، فكّر في الإقدام على تنفيذها ، أن يتزوج فتاة صغيرة ، بيضاء ، لاتلد له أحداً، وتتقن الرقص الشرقي ، حتى ينزّه شيبته ، فيما تبقى له من أيام...

ثم أقدم على فعلته ¸ قبض مكافأته ، حيث دفع جزءاً مهماً منها مهراً للعروس الصغيرة ، وكتب كتابه في نفس اليوم الذي ولد فيه ، وحين دخل إلى عروسه ، تناول حبة منشط أعتقد أنها ستكون كافية ليقوى على مواجهة شيخوخته ، والقيام بواجبه كزوج...

أضطّر لواحدة أخرى ، ثم لثالثة فرابعة...

وحين أصبحت عروس الغفلة ، كان مستغرقاً بجوارها في نومٍ لاصحو من بعده .

الحب على الصورة الأولى

ما أن رآها حتى إرتدّت ذاكرته إلى الوراء ، أكثر من عشرين عاماً ، وقد هاله الشبه الكبير بينها وبين تلك الفتاة التى ظلّت فتاةً لأحلامه ، ولم تغادرها ، رغم ما أحدثته وقتها في نفسه من نكسة عاطفية حوّلت مسار حياته بأسره.

خال أنه ، في بادئ الأمر ، وقد وصل إلى حالةٍ مرضية من تهيؤ الأوهام يتخيل ما هو غير قائم، كانا شابين متحابين ، يجلسان كل يومٍ على المقعد الخشبي ، تثير في قلبه كل هوى ، وتلهمه بموهبة الشعر التى بشرّته بمكانة أدبية ، كانا يحلمان معاً ، ويفرشان طريقهما القادمة بكل الورود ، ويعدان نفسيهما بحياة أبدية ، يكوّنان الأسرة التى تضم أطفالاً أجمل من البهاء وأحلى من السكر.

إلى أن فوجيء يوماً بأنها صارت لواحدٍ غيره ، هكذا من دون مقدمات ، يومها أفجعته المفاجأة ، وتضاعف وقعها ، حين علم بأنها قد ارتبطت برجلٍ يفوق عمرها بالضعف تقريباً ، ثم عرف معنى آخر للحياة ، حين رأى العربة الفارهة التى تقوم بايصالها كل يوم إلى الحرم الجامعي ...ثم كل معالم الثراء وقد بدأت تتناثر من حول تلك الفتاة التى كانت بالأمس فتاة لأحلامه ، وما غادرتها ، بعد ذلك ، رغم أنه تزوج زيجة واقعية ، وانخرط في واقع الحياة ، حتى صار على قدرٍ من الثراء ، هو أيضاً...

ما عاد بمقدوره بالطبع أن يغامر مع فتاة أخرى ، حتى لو كانت شديدة الشبه بتلك ، التى تربّعت طول الوقت في مخيلته ، وظلّت هكذا إلى الأبد ، لكن دافع الرغبة في مداعبة الخيال المراهق ، الذي انطوت عليه الذاكرة ، كان وراء سعيه إلى أن يلتقي ذلك الشبه ، الذي لابد أن يكون متحاباً مع شابٍ بمثل وسامته وشبابه اللذين كان عليهما قبل عقدين من الزمن .

مفاجأة أخرى كانت بانتظاره هذه المرّه ، حين بادرته الفتاة الصغيرة ، التى هي بعمر أحلامه التى مضت ، وصارحته بحبها ، وباستعدادها أن تكون له وحده ، زوجاً أو عشقية ، تجلس تحت قدميه!

بادرة مثيرة ، لكن دافعها بالتأكيد ليس حباً عاطفياً ، ورغم ما تثيره في نفسه من شعور بالزهو والتفوق ، الاّ أنه أدرك على الفور ، بأن ما لديها شيء آخر غير الرغبة في المشاركة بتحقيق حلمٍ عاشقٍ جميل، طالما راوده ، وداعب خيالاته ...

تمنّى من أعماقه لو كان في مثل عمرها ، ولو كانت ظروفه تشبه تلك التى كان عليها قبل عشرين عاماً ، هكذا عاد يحلم مجدداً بالمستحيل ، ولم تخطر بباله مطلقاً أيه رغبة بالأنتقام من تلك التى فجعته في حبه ، حتى لو كانت هذه الفتاة هي بنت تلك الفتاة التى مضت ، ثم عادت إليه مجدداً بعد عشرين عاماً، دون أن تغيّر بها الأيام شيئاً. ■

إنتــــــــــــــــــــــرنـــت

منذ كان صغيراً ، هو يميل إلى أن ينسل خارجاً من صخب الحياة وضجيجها، يفكّر طويلاً في كل أمرٍ ينوي القيام به ، أو في أي قولٍ يهم بالافصاح عنه.

البعض ، ممن يحيطون به ، رأى فيه إنطوائياً ، والبعض الآخر عقلانياً، والقليل منهم ، تنبأ له بحياة مغايرة ، أما هو فلم يخطط لشيء ، سوى أنه توصل مبكراً إلى الإعتقاد بأن العالم ، الذي يستحق أن يمنحه إهتمامه ، يتجاوز أسرته ، عشيرته ، وحتى بلده الصغير ، وإذا ما أطلق العنان لخياله ، وفكّر في الاتساع المذهل للكون ، توصل إلى نتائج ، تدفعه إلى الجنون ، وإلى احتقار كل من في هذه الدنيا الصغيرة ، التافهة إلى أبعد الحدود.

على النقيض منه تماماً ، كان شقيقه التوأم ، الذي لم يكن على شبهٍ به، ليس في الشكل وحسب ، ولكن في كل شيء تقريباً ، الطباع ، الميول ، الإهتمامات ، الآراء ، المواقف . كان على عكسه تماماً ، إجتماعياً إلى أبعد حدٍ ، وتقليدياً أيضاً ، صورة كربونية عن أبيه ، بذكورته الاجتماعية البالغة ، وميله الواضح إلى العنف والإندفاع والقوة .

قليلاً ما كان الشقيقان يتقابلان ، رغم أنهما عاشا معاً ، ودرسا سوياً ، وبدرجة أقل , كانا يتحاوران ، وهما يعلمان النتيجة سلفاً.

تابع صاحبنا إهتمامه غير العادي "بالإنترنت" ، وإنعكست عليه ، بشكل واضح ثورة الاتصالات العالمية ، وطوّر تحصيله للغة الانجليزية ، وإنفتح هو المنزوي في الركن الضيّق من الحيّ الهادئ ، في المدينة النائية ، على كل العالم الذي صار بين يديه ، مربوطاً بمفاتيح الجهاز الإلكتروني.

ثم بعد وقت تعرّف صاحبنا إلى فتاة رآها على الشاشة الإلكترونية ، وتحادث وإياها أياماً وليالي طويلة ، تعرّفا خلالها على بعضهما بعضاً ، فتوافقا واتفقا على الزواج . كانت من غير أهله ، تتحدث لغة أخرى ، وتعتنق ديناً آخر ، أما شقيقه التوأم ، الذي أصّر والدهما على أن يزوّجهما معاً في ليلة واحدة ، فقد تزوّج ، أقرب فتاة إليه ، أبنة عمّه ، التى بالكاد رآها.

وبعد سنين كانا كلاهما على وئام تام مع زوجتيهما ، الأول مع قليل من الأولاد ، وكثير من التعاون ، والثاني مع كثيرٍ من الأولاد ، وكثيرٍ من التحديد في الوظائف والمهمات العائلية بينه وبين زوجته .

إفـتـر ا ضـــــي

لم تجرّب أن تكون أعزباً يا صديقي

ثم يفهم نظرتي الاعتراضية ، فيستدرك : أقصد ، أن تكون كذلك بعد طول زواج.

أفهم الحسرة والرغبة الممتزجتين في نبرة صوته ، وأدرك عمقها ، خاصة لواحدٍ مثله ، في مثل هذا الواقع القاحل من العواطف ومن الفتيات المنفتحات على مثله، اللواتي لايشترطن الزواج سبباً لنشوء العلاقة بين "الضدّين" : الرجل والأنثى .

زواجه انتهى مع انتهاء الشعار الكبير -باللمفارقة- وبالسوء حظه ، حين كان مثالياً وربط كل مصيره وشؤون حياته الخاصة به . وحين صارت الأحلام أصغر كثيراً من كل التوّقع الذي كان ، صار هو على قارعة طريق الوطن ، الذي طالما أحبه وقاتل من أجله ، بكل الإندفاع والحيوية ، اللتين تميّز بهما ، كما الكثيرون.

في حضرة الأنثى -أية أنثى- حتى لو كانت كذلك بمجرّد الإسم فقط ، يستحيل هذا المتوحش إلى قطعةٍ وادعة ، حتى صار هو الذي مرّت عليه النساء ، كما أسراب الطيور المهاجرة ، يفكّر جدّيا في الزواج من إمرأة ، أية إمرأة.

لم تكن له شروط ، سوى أن تكون قادرة على الإنجاب ، وأن تقبل بفارق العمر الذي لابد أن يكون بينهما.

أسخر منه فيقول :ما أصعب أن تكون أعزباً بعد زواج أو أن تكون قاحلاً بعد خصب...

أصحح له القول مستعيناً بالحكمة : أعزب أبد الدهر...يهلّل لتعاطفي وتفهمي ، ويحكي لي كل صباح عن مشاريعه بالإقتران ، التى تنتهى كل مرّة عند اللحظة الأخيرة.

لايدرك هو بالطبع ، الدافع الذي يمنعه من إتمام الأمر ، إلى أن نشأت علاقة هاتفية بينه وبين فتاة عاملة في مؤسسة عامة ، فرضت ظروف العمل عليهما التهاتف شبه اليومي.

إعتقد لوهله بأنها مشروع زوجته المفترضه ، فصار يحاسبها على مكالماتها مع الآخرين ، وعلى كل صغيرة وكبيرة في حياتها ، هو يعتقد بأنها صارت خاصته ، التى لابد أن تخلص له في الحديث والتهاتف ، وأن لا تفعل الشيء ذاته مع الآخرين.

لم يتقدم -بعد- بالطبع في طريق الإجراءات الرسمية اللازمة ، وسار على هذا المنوال وقتاً ، إلى أن فوجيء يوماً بشكوى، رفعتها ضدّه الفتاة إياها ، واتهمته فيها بسوء إستخدام الهاتف العام ، وبالتورط في شبهة المعاكسات السلكية.

إعلانـــــــــــــــــــــــــــات

كما هي عادتي اليومية ، أدخّن سيجارتي مع فنجان القهوة غير المحلاّة ، وأقلّب الصحيفة ، ثم أمرّ على عجلٍ على الأخبار السياسية ، التى تنغّص المزاج ، وغالباً ما تفطر القلب ، ولا أتوقف الاّ عند الإعلانات وأخبار الرياضة.

هنا المجتمع بأسره ، ينفتح أمامك على صفحات الورق ، منذ الصفحة الأولى ، تهنئات بالترقية ، الزواج، المواليد، سلامة العودة بعد رحلة علاجٍ، أو حجيجٍ، أو إستجمام ، تعازٍ على فقدان عزيزٍ ، ذي أقارب معروفين ، متنفذين ، قادرين أو مقتدرين ، شجبٍ واستنكار ، إعلان براءة ، حصر إرثٍ ، أو وظائف شاغره.

يستأثر المسؤولون والموسرون ، كثيراً بكّم الاعلانات ، الفقراء هنا ، لامكان لهم ، لعدم قدرتهم ، ربما ، على دفع مقابل الإعلان .

تتوقف مطوّلاً عند الإعلان المزدوج بالتبليغ بالطلاق الغيابي ، الأول إلى نادية ، مجهولة محل الأقامة ، يخبرها القاضي الشرعي بأن زوجها غير الداخل بها ولا المختلى بها ، قد أوقع عليها طلقةً واحدة ، بائنة بينونة صغرى ، لاتحلّ له الاّ بعقدٍ ومهر جديدين ، ما لم تكن مسبوقة منه بطلقتين.

والثاني الى المدّعى عليه ، بلال ، مجهول محل الأقامة ، يخبره القاضى الشرعي بأنه قد حكم بالتفريق بينه وبين زوجته ومدخولته بصحيح العقد الشرعي ، بطلقةٍ واحدة أولى بائنة بينونة صغرى للغيبة والضرر ، ما لم تكن مسبوقة بطلقتين ، وأن عليها العدة الشرعية ، إبتداءً من التاريخ المبيّن أعلاه.

تفكر برهة في أحوالك . وتستعرض مسيرة الإحباطات والمعاناة والضنك ، التى رافقت حياتك كلها ، إحتمال وحيد يثير في أوصالك الرعب ، فتستدرك الأمر بالرغبة في الإعلان عن شكرك العميق إلى الله ، سبحانه ، الذي رغم كل ما أبتلاك به ، في هذه الدنيا الراحلة على عجل ، ورغم أنه خلق المرأة ، على أبهى صورة ، وأجمل هيأه ، فأنه يستحق منك كل العرفان بالجميل ، فقط لأنه لم يخلقك إمرأة.

دوام الحـــــــــــــال

تمر الأيام وأعتاد معها الحياة في الدائرة الضيقة ، المحددَة بالحواجز الأربعة ، ولا أفكر فيما هو أفضل ، ذلك أني هذه المرة في وطني ، الذي لا تعادل متعة الإقامة فيه أية متعة أخرى ، خاصة حين يدور الحديث عن واحدٍ مثلي " مرمرته " المنافي وألقت به نزعة التمرد الدائمة الى عدم الثبات على حال.

ولأن بقاء الحال من المحال ، كما يقال ، فقد بتَ أسمع ، بعد وقت ، وأرى وأتلمس بأن حالي هذا ، ليس حالاً عاماً ، فهناك إستثناءات لشخصيات مهمة جداً، يمكنها أن تمر عبر الحواجز ، في كل ظرف ، وفي كل وقت ، لم يعنني الأمر كثيراً ، لأنني اعتقدت بأنه يتعلق بشخصيات هي فعلاً مهمة.

إلى أن داهمني الإكتشاف يوماً ، حين رأيت مبدعاً كبيراً ، هو شخص مهم جداً ، بكل مقاييس العصر ، يتوسل إلى مرافق لشخص مسئول أن ينقل له حاجة عبر الممر المستحيل، حينها قمت بالبحث والتقصي عن المفهوم الملازم للشخصية المهمة ، فتوصلت الى النتيجة بأنه لا يتجاوز واحداً من أثنين :.

مسئولاً عسكرياً يعلق على كتفه ما يدل على مكانته، أو موظفاً كبيراً يحتل مكانة وظيفية أو إدارية ذات شأن .

لا ينطبق الحال بالطبع على كاتب أو مبدع أو فنان مهما بلغت أهميته ، أو تراكمت أعماله ، و حتى لو طبقت شهرته ومكانته الآفاق .

تذكرت سؤال الباحثة السينمائية على الفور، لنا ، وكنا نفراً من الكتاب ، عن المعنى الذي قصده مخرج الشريط السينمائي، زوجة رجل مهم، حين كان إجماعنا على الجواب ، بأنه ضابط في الأمن، لم نعتقد نحن أيضاً بان المقصود ، يمكن أن يكون كاتباً أو مبدعاً ، حينها فقط ، كتمت غيظي، وتكومت على ذاتي ، وأيقنت بأن دوام الحال ممكن، على كل حال .

وفي كل ميدان وفي أي مجال ، وأن حياتنا – والحمد لله -تمام التمام وعال العال.

صبـــــــــــــــــــوة الـمـراهـقـة

إنها تحبه حباً حقيقياً، وهي على يديه اكتشفت أنوثتها وحقيقة الرغبة التى تجتاح الأنثى تجاه الرجل. ومعه هاهي تعيش أياماً حلوة، ملؤها الحياة بكل ما فيها من معنى ومن إقبال فتي ، لا يعرفه إلا الشباب حقاً .

وهو يحبها من أعماقه ، فهي فتاة أحلامه ومشروع حياته، تخلّص معها من وحدته القاتلة، ويشعر برفقتها بزهو لا حدود له، رفيقة يحسده عليها أقرانه، نظراً لما تتمتع به من جمال وشخصية استثنائية بكل معنى الكلمة.

تحت ضوء القمر الربيعي ، كانا يقضيان أمسيات عذبة، يناقشان بإنسجام كل أمور الحياة، ويتبادلان أفكارهما المتوثبة، الكتب والأشرطة, التى تتداولها الأيدي بسرية خاصة، ويحلمان معاً بوطن آخر، لا يعد فيه المخبرون أنفاس الناس.

يتجولان كعاشقين، إنفتحت عنهما صفحة الأيام في زمن تكثر فيه لوائح الممنوعات، لا يمكنه أن يفكر بحياته اللاحقة دونها، أما هي فلا يمكنها أن تسمح للحظة بأن تمر دون أن تستمتع بالألفة التى توفرها لها رفقته.

سؤال واحد , كان عليهما أن يجيبا عليه معاً ، هو يلح عليها، وهي دائمة التهرب منه ، هو يرى فيها المرأة الوحيدة في الكون التى يمكن له أن يتخذ معها قراره الأزلي، وهي ترى فيه مستقبلاً غير آمن !.

وحيث أنه كان لابد أن تحضر يوماً اللحظة الفارقة ، ودعته على عجل، ثم عادت الى البيت تعطي موافقتها على العريس، الذي يمتلك كل الشروط اللازمة لتأمين بيت لائق لزوجة فاتنة.

تقبل الأمر بروحه الرياضية، وتقدم من الفتاة التى طالما تقربت إليه، ورأت فيه زوجاً محباً، قادراً على توفير الأمان العاطفي لها.

ثم عاشا كلاهما بسعادة، هي أمتلكت بيتاً ومركبة ورصيداً مالياً، وزوجاً وجيهاً إجتماعياً، وكان بمقدورها أن تذهب الى حيث تريد، وأن تشتري ما تشتهي، وهو زوجة مخلصة تحبه وتفضله على كل الرجال جميعاً .

أما الأيام العاشقة فصارت تجول بالمخاطر ، كمزحة، أو كصبوة المراهقة ، التى تمر كبرقٍ خاطف في ليلة حالكة الظلام.

وردة

تبدو جميلة تفتحت للتو ، وهي إضافة لصباها تتمتع بقدر من الجمال والرقة ، يدفع من حولها إلى إبداء إهتمام خاص وواضح بها

أما أنا ، فإن ما يدفعني إلى أن أوليها الإهتمام ، إضافة إلى ما لديها مما يثير إهتمام الآخرين ، هو ما لدي أنا من رغبة ، ومن إستعداد للإهتمام بهؤلاء الصبية وأولئك الفتيات ، نظرا إلى ما يضفونه على حياتنا من حيوية ومن إقبال وإستعداد للتجدد المفترض ، وربما أيضا تحقيقا لدافع نفسي ، نسعى عبره إلى إقناع أنفسنا أولا ، بان حياة الشباب لم تغادرنا بعد.

لذا فانا دائم التودد والتقرب واللجوء أيضا ، أخترع المبرر أحيانا كثيرة للحديث والكلام ، تفهم بالطبع وتشعر بما أكنه من ود لها ، ثم ندور كلانا في نقاش ، كنت أظنه في باديء الأمر مفيدا لباحث إجتماعي مثلي ، يهتم بأمر الشباب وهمومه ومشكلاته .

تحادثنا مطولا عن الجلباب . الذي يحجب القوام ، وعن المنديل الذي يخفي شعراً حريرياً تحت طياته ، وتبادلنا آراء في السياسة والحياة والتكنولوجيا...

سألتني عن سر إهتمامي بالمرأة فأجبت : لقناعتي بضرورة وأهمية أن تتحرر من الظلم والإضطهاد ، الذي تتعرض له في مجتمعاتنا الشرقية .....

أنكرت بإحتداد أن تكون المرأة عندنا مضطهدة .. توقنا عن الحوار ، وأكتفينا بصباحات الخير والسلام عن بعد فقط...

هـــــــــــو ....هـــــــــــي

هو تجاوز الأربعين من عمره .
هي تخطت العشرين ربيعا بقليل من السنين وحسب.
هو متزوج وأب لعدد من الأولاد ، ومسؤول عن عائلة .
هـي ليسـت كـذلك ، ومـا زالـت بنتـا, تخضـع للرعايـة والولايـة ، مـن قبـل الأب، الأم والأشـقاء الذكور.
هو ههوائي ، يمكن أن يشعر بالرغبة ، وأن يكن الهوى لكل نساء الدنيا.
هي تنتظر نصيبها الذي تعتقد بأنها ستمنحه قلبها بعد أن تمنحه حقه الشرعي في جسدها .
هو لا يقوى على التفكير بالزواج من أخرى رغم إستعداده للوقوع في هوى إمرأة أخرى .هي تنتظر وعدا بالزواج ، حتى تفتح الباب إلى قلبها .
هو لا يبدي إستعداده لذلك .هما في إتجاهين متعاكسين .
هو دائم التنقل والتحول
هي دائمة الانتظار .

ضـــــــــــد ا ن

رغـم إختلافهمـا البـين ،الـدائم والمسـتمر , لـيس فـي الطبـاع وحسـب , ولكـن فـي الأخـلاق والإمكانيات والمعتقدات أيضا , إلا انهما ترافقا في مسيرة الحياة . في البداية كانت الصدفة هي التي حطت بهما إلى حارة الصبا ، ثم بعد ذلك ، صارا يمضيان في الرحلة معا ، رغم الإختلاف الذي كان احيانا ، يؤدي بهما إلى التنابذ والتباعد ، والإنخراط في إتجاههن متباينين .

كلاهما كان مقتنعا تماما بحياته وإتجاهه ، لكن أحدهما لم يكن يقوى على التفكير في الحياة دون الآخر ، وربما كانا كلاهما، يدركان في أعماقهما بأن الآخر يشكل خط رجعة للذات ، يقلل من إندفاعهما في التطرف ، ويمثل ضمانة أيضا في حال أثبتت الأيام خطأ الإتجاه والتوجه.

وهما على فرادة حالهما ، في تلازمهما ، على ما هما عليه من تباين ، لم يكونا ليشكلا إستثناء في التباين ، الذي كان سمة عامة للمحيط من حولهما ، الذي كان على أي حال يضع حدودا ، يقر بها الجميع لما هو ممكن ، ولما هو مستحيل.

وحدتهما بدت أبدية ، لا يمكن للمرء حتى، أن يفرق بينهما، وهو حين كان يقترب منهما أكثر من اللازم ، كانا يمضيان معاً في مواجهته كرجل واحد.

الوظيفة العامة وحدها فعلت بهما ما كان مستحيلاً، حيث كان بمقدور الأول أن يحقق باستعداده الفطري للتزلف، ما لم يقوى الآخر على فعله، رغم كل ما بذله من جهدٍ وما دلّل عليه من قدرةٍ وأقتدار.

الـفـتـى و الـكـهـل

الأول ،فتى في مقتبل العمر، بهي الطلّة، في ريعان الشباب.
الثاني ،كهل في آخر العمر ، أبيّض شعر رأسه، وغزت التجاعيد وجهه وغادرته النضارة على عجل.
الأول ، يواظب على التقاليد ، ويدور في دورة الحياة الصامتة ، دون أن يسعى الى تجاوزها بخطوة واحدة.
الثاني ، دائم التوثب والتجاوز ، يتعامل بإستعداد مكتسب مع كل جديدٍ، ويمتلك قدرةً خاصة على التأقلم مع الوقائع.
الأول ، ثابت على الفكرة الأولى، من درسه الأول ، سائر على درب السلف، دونما ترددٍ أو توجس.
الثاني ، دائم المراجعة والإجتهاد ، متوقد الذهن، واسع الخيال .
الأول ، لديه ذاكرة لا تقبل الجدل ، ولا تتعامل مع الشك.
الثاني ، يملك عقلاً شكاكاً، لا يأخذ بالقشور ، وينفذ الى جوهر الأشياء .
الأول ، يتتبع سير الحياة منذ أزلها حتى نهايتها الموصوفة.
الثاني ، يبدع في الحياة، ويضع نصب عينيه نهايتها الغامضة.
الأول ، شيخ في هيئة شاب يافع، خذلته الفكرة الصماء.
الثاني ، شاب على هيئة كهل ، خذلته سنة الحياة الفانية.
هما الكهل في الشاب والشاب في الكهل ، يحتاج أحدهما الآخر،
الأول يحتاج هيأة الثاني، والثاني يحتاج هيئة الأول.
هما ينزعان الى المستحيل.

عمـاد بـاشـا

تثقل النياشين على كتفيه، حتى أنه لم يجد بدَاً من التمدد على مقعده الوثير، ينظر بطرف عينيه إلى الكؤوس الملقاة بإهمال على الطاولة المضطجعة أمامه بترهل، يفكر في ما هو فيه من ملل وفي أيامه التي تمضي كسولة باردة.

لم تعد الألقاب تعني له شيئاً، بعد أن منّت عليه القيادة العليا بكل ما جال بخاطره منها، ولم تعد الأوسمة التي تلقاها، دونما مناسبة أو سبب يؤهله لأن يكون جديراً بها، تثير في نفسه السرور الحقيقي، وحدها النياشين المعلقة على البزَة الرسمية، هي ما تثير في نفسه زهواً بارداً، لأنها ترافقه على الدوام، وبها يمكنه أن يتقدم من النساء بقوة، لا يخالها تتوفر لدى الرجال الآخرين!

ولأن مصاحبة النساء، تكون أجمل، حين تتم في إطار طقسه الخاص، فقد إعتاد أن يبدأ ليلته بكامل "بهائه" المصطنع، ثم يلج فيها مصطحباً كل العوامل المساعدة على الإنتشاء، من السوائل إلى الدخانيات المهربة، يراقب وحده، فضائيته المحببة، والتي عبرها أمكنه أن يتعرف على الوسائل والأشكال الحديثة للتعامل مع المرأة.

هكذا يمضي العماد وقته، وهكذا إعتاد أن يقضي لياليه، بعد أن هدأت جبهته، وتراخت أعصابه وإهتماماته، وما عاد يشغل باله، سوى فتوحاته المشتهاه، على الجبهة الطبيعية الأولى التي اكتشفها الإنسان البدائي الأول، حين أخرج الشيطان آدم من الجنة.

وحين يرتفع الخط البياني لليل، ويدور الخدر في الجسد العجوز، ويشف الشعور ويستحيل إلى حال أثيريه، يبدأ كما الرفيقة المتخيلة بخلع نياشينه، ثم ملابسه قطعة ... قطعة، إلى أن تنفتح الطبيعة على بلاهتها، ثم في لحظة الذروة يلطمه القدر على قفاه، حين يصطدم كفه-خطأ- بجهاز التحكم عن بعد، فتنقلب قناة البث، لتعرض شريطاً إخبارياً للحرب الدائرة في مكان آخر.

مبـادرة

زرقة السماء في عينيها، ولاعج الشهوة الضاج بين شفتيها، يغويني إلى الإندفاع في المغامرة إلى أبعد مدى ممكن.

لكن ما يدفعني إلى التفكير ملياً في الأمر، هو أن شيئاً خاصاً، أو فعلياً لم يتم بعد على طريق هذه المغامرة المأمولة، وأن شيئاً لم يتعد حدود الإطراء الذي يدير رؤوس الحسان، الذي إعتدت أن أزج به لكل جميلة تصادفني هنا أو هناك.

هي تدرك هذا، لكن ذكاءها، كشف لها أيضاً حقيقة هشاشتي وضعفي إزاء الجنس الآخر، وقابليتي للسقوط في هوى أول إمرأة تأخذ بيدي على طريق المغامرة اللذيذة.

كان يمكنها بالطبع، وهي الرائدة في العمل النسوي، وذات الشخصية القوية، والكيان المثير، أن تصفق لي بأصبعيها حتى أهوي ككومة من القش، أو أن أشتعل كعود ثقاب.

لكنها لم تفعل، في حين أنا لازمني ضعفي وترددي، وخوفي من أن أخسر المرأة التي أشتهي، شر خسارة، بتهمة قلة الحياء، إلى أن صدمت أوهامي، في نقاشنا العام، حول إن كانت المرأة المتحررة، مستعدة للمبادرة في إعلان حبها، وفي اختيار شريكها، أم أنها ستبقى تنتظر منه التصريح بحبه ورغبته، حتى لو كان ذلك واضحاً في عينيه وفي شوقه ولهفته فقط لأنه الرجل!

مطلَقة

هي ذات المرأة التي طالما حلُم بها، وإشتهاها في لحظات خلوته، وكان يبذل كل جهده، ليظفر منها بنظرة عين واحدة.

قبل أعوامٍ قليلة، لا تصل عدد أصابع اليد الواحدة، كان يبني كل أحلامه وأمنياته على أمل أن تكون زوجته، التي طالما رآها طيفاً من البياض القادم من عالم الأحلام، تودد وحاول بكل الوسائل أن يتقرب منها.

لم تكن فظَة، وكانت أرَق من أن تؤذي مشاعر أحدٍ آخر، لكنها لم ترد له اللهفة بمثلها، ولم تقابل تودده تودداً، وهو إزاءها لم يحتمل ضياع الوقت، فإعتقد أنها كمثل الأخريات، تصده طمعاً بإدراك حقيقة رغبته ومآلها.

لم يتردد لحظة في التقدم لخطبتها، بعد ذلك فقط إقتنع بأنها لن تكون زوجته التي يشتهي، حينها أغلق باب قلبه على طيفها، مكتفياً بالعاطفة الطفلة، وبالرغبة الأولى، مقتنعاً بحقها في إختيار شريك حياتها، الذي لم يكن ولعظيم أسفه هو شخصياً.

لم يتزوج هو، حتى هذه اللحظة، لأنه لم يلتق بعد إمرأة، كتلك التي إنغلق نبض قلبه على طيفها، هي فعلت، ولم تنخسف الدنيا، لكنها بعد عامين فقط، كانت قد تطلقت.

لم تكن صدفة، على الأغلب تلك التي جمعتها به، مجدداً وكانت قد صارت إمرأة أكثر أنوثة وجمالاً، تـوَددت إليه، وعبرت له بشكلٍ صريح عن رغبتها في أن تلتقيه دائماً، باحت له بمكنونات صدرها، ومعه فقط كانت على إستعداد لمداواة جراحها، والمغامرة بتكرار التجربة.

دونما إندفاع، وبتحفظ واضحٍ، وافق على أن يقضي وقته معها، لكن دون أية أوهام، ترتبط بمجرد التفكير بالزواج منها، إنها مطلَّقة، هذا هو الجواب الذي ردت به دواخله، حين قفز السؤال من قلبه إلى رأسه، وهو يراقب حركاتها الودودة، وحديثها العاشق!

"وجيـه"

تتنقَل جماعـة الخيـر بـبطء، يتلفَـع أعضـاؤها بعبـاءاتهم الثقيلـة، يتوسـطهم المختـار، فـي موكـبٍ مهيب، بين طرفي النزاع، اللذين دبَ الشقاق بينهما على توزيع التركة الكبيرة بين الأشقاء الورثة.

لم أكن مقتنعاً يوماً بالمخاتير، ولا بدورهم الإجتماعي أو الوطني، حتـى سنحت الفرصـة النـادرة لي، في الوقوف على منطق هذا المختار، مركز "جاهة" الخير تلك، فأطرقت أستمع إلـى كلماتـه العادلـة، التي وضعت الحق في نصابه، حين إحتج أحد الأخوة، وكان على غير وجه حق، وقف فـي وجهـه، وفنّد بمنطقٍ لا يقاوم رغبته الطامعة في الاستئثار والتفرد.

على غير عادتي،صرت جليساً في ديوانه، أستمع كل يومٍ لقصـةٍ من قصصـه فـي إصـلاح ذات البين، وأقف علـى واحدةٍ من مـآثره فـي إحقـاق الحـق ومنـع وقـوع الشـقاق والفرقـة بـين الأخـوة والأهل، الأقارب والجيران.

إلى أن ذهبت إليه يوماً، ووجدت في حضرته "جماعة" أخرى للصلح، جاهد مختارها معـه، بمـا أوتي من قوة منطق، ليثنيه عن الرغبة الواضحة والعارمة فـي الإستئثار والتفرد بتركـة أبيـه، الـذي مـات وترك له ثروة كبيرة، لكن مع قليلٍ من الأخوة، الورثة.

عنـو ا ن

زميلنا المتدرب في قسم التحرير الصحفي، الوافد حديثاً إلى "المجلة"، صار موضوعاً لتندرنا الدائم، ذلك أنه إعتاد أن يضع عنواناً مثيراً ثم يبحث له عن مقال!

الذي دفعه لذلك، هو رغبته في محاكاتنا، نحن الأقدم منه في المهنة، الذين كان حين يقوم بالإطلاع على مقالاتنا، تثيره عناوينها، حتى أيقن أهمية العنوان ودوره في اصطياد القاريء ، أما الموضوعات فكانت تقريباً متشابهة، تشترك في الدوران حول الموقف "المركزي"، والدعاية الإنشائية له.

تذكرت زميلنا ذاك، في أيامنا هذه، التي تزخر بالموضوعات الكثيرة والمثيرة، تبحث عن عناوين مثيرة فقط، تذكرته بقوة، وأنا جازم الإعتقاد بأنه لو واصل معنا مهنة الصحافة، لصار اليوم صحفياً مرموقاً، لمجرد قدرته على إقتناص العناوين فقط، ومعها جموع القراء الباحثين عنها، دون جدوى.

تـكـنـولـوجـيـا

1- مصعد

شـعرت بحنـقٍ مـا، وببعض الغضـب، حين توجهت إلـى مكـان العمل، ووجـدت المصـعد الآلـي معطـلاً، بسـبب انقطـاعٍ التيـار الكهربـائي، فأضـطررت -علـى مضـض- إلـى أن أصـعد درجـات السـلم الطبيعي، التي كانت كلما إزدادت صعوداً، كلما شعرت معها بصدري يصعد ويهبط في لهاث واضح.
كان الأمر مناسبة، لأن ألقي تحيات الصباح علـى الـزملاء والـزميلات، ثم وجدتني أعرج علـى بعضـهم، فأتناول فنجان قهوة هنا، أو كوباً من الشاي هناك.

لم أكن أعلم بالطبع، دافعي لذلك، أكان الرغبة في الظفر بقسطٍ من الراحة لجسدي الذي ترهل، مع إعتياده الصعود آلياً، أم التمني في إسترداد لحظة من أيام مضت، بسرعة البرق، كنا خلالها على عادةٍ التحلق حول فناجين القهوة الصباحية، نقرأ الصحيفة معاً، نتناقش ونتداول ونتحادث، ثم ندوَر "النكات" بيننا، فتنفرج أساريرنا على مداها.

2- سيارة

قبل وقت قصير جداً، كنت فتياً، رشيقاً، لا أخشى مرضاً يداهمني على حين غرَة، أشعر بقوة داخلية، تمنحني القدرة على ممارسة دوري الوحيد في الحياة: الكتابة...

أسير من منزلي إلى مكان العمل، في رياضة صباحية، تبثّني إقبالاً واستعداداً لعملٍ يومي، لا تتسع له الساعات الست على طولها.

وكانت لي صداقات حميمة، نبتت على طول الطريق، المنبسط، على إمتداد شاطيء البحر، كنت آخذ منها حكاياتي ومواضيع قصصي، أناقشها في هواجسي وأحلامي، وحتى في موضوعات مقالاتي.

لم يعد الأمر كذلك الآن، بعد أن شعرت يوماً بالضيق والكسل، وصرت أرى رحلتي اليومية من سرير النوم، إلى مكتب وثير لا يختلف عنه كثيراً، أو صرت أراها رحلة بين موتين عابرين، يتكرران كل صباح.

الهموم تثقل صدري، دون أن أقوى على معالجتها، بما إعتدت عليه، طوال رحلتي في الحياة، كأنه الموت قبل أوانه، ذاك الذي جاءت لي به تلك المركبة التي نزعت مني البهاء، حتى شخت معها، رغم أنها أحاطتني بزهوٍ فارغٍ، وبمعنى جديد للحياة، لكنه دون مضمونٍ أو معنى.